الجامعة

الحياةُ باطِل

عَظَمةُ الجامِعة

الكتابُ المُقدَّس هو أعظَمُ الكُتُب جميعًا، وسِفرُ الجامعة هو وحدَه كِتابُ الفلسفة، الفلسفةِ الخالصة، الفلسفة المُجرَّدة، في الكتاب المُقدَّس. فليس مُفاجئًا إذًا أن يكونَ الجامعةُ هو الأعظمَ بين كُتُب الفلسفة كُلِّها.

ماذا؟ الجامعة أعظم كُتُب الفلسفة كلِّها؟ ولكنَّ الكاتب لا يَعرِف حتَّى مُحاوَراتِ أفلاطون، أو مَنطِقَ أرِسطو، أو حتَّى أُصولَ الاختصار الجيِّد! فهو يَخبطُ عشوائيًّا، ويُغيِّر رأيَه كثيرًا، ويَدَع أمزِجتَه تجرفُه بقَدر أدلَّته تقريبًا. كيف يُعقَل أن يكونَ هذا المركبُ الصغيرُ القديمُ الخَشِن هو فُلكَ نُوحٍ كُتُبِ الفلسفة؟ ثُمَّ إنَّ بيتَ القصيد في هذا السِّفر هو "باطل الأباطيل"، لامعنى الحياةِ البشريَّة. فكيف يُعقَل أن يكون كِتابٌ عن اللَّامعنى مُفعَمًا بالمعنى؟

يمكن ردُّ الاعتراض الأوَّل بإدراكِ كَون العَظَمة لا تأتي من الشَّكل بل من المضمون. فشَكلُ الجامعة بسيط، مُباشَر، ساذَج. ولكنَّ المضمون، كما سنرى، هو أعظمُ ما يمكنُ أن تقولَه الفلسفةُ على الإطلاق.

ولكنْ ماذا عن الاعتراض الثاني؟ كيف يُعقَلُ أن يكونَ كتابٌ عن اللَّامعنى مُفعمًا بالمعنى؟ إنَّ الكتابَ العظيمَ يجب أن يكونَ صادِقًا مُخلِصًا، يجب أن يُمارِسَ ما يَعِظُ به. مثلًا، **تاو تي تشِنغ** (Tao Te Ching)، وهو العملُ الكلاسيكيُّ الصينيُّ (**تشِنغ**) العظيمُ عن القوَّة الروحيَّة (**تي**) التي تخصُّ الطريقَ (**تاو**)، يَستخدِم بذاته قوَّةً روحيَّةً (**تي**) غامضةً تُهَيمِن على القارئ، قوَّةً لها طبيعةُ التَّاو نفسُها، تلك الطبيعةُ الخفيَّة التي

تُشبهُ الماءَ المُتدفِّق والتي لا تُقاوَم. أو كِتابًا عظيمًا عنِ العُنف والشَّغف، كروايةٍ لِدوستويڤسكي (Dostoeyvski)، يجب أن يتَّسمَ هو نفسُه بالعُنف والشَّغف. كما أنَّ كتابًا عن التَّقوى أو الوَرَع يجب أن يكونَ وَرِعًا. وهكذا، فإنَّ كتابًا عن البُطلان يجب أن يكون باطلًا أو عابثًا، أمَا يجب أن يكون كذلك؟

كلَّا! إنَّ الفيلسوف الذي كتب الجامعة هو **الأقلُّ** بُطلًا بين الفلاسفة. فالباطِلُ لا يمكنُ أن يكتشفَ نفسَه، تمامًا كما أنَّ الحماقةَ لا يمكنُ أن تكتشفَ نفسَها. إنَّما الحكيمُ وحدَه يعرفُ الحماقة. أمَّا الحَمْقى فلا يعرفون الحِكمةَ ولا الحماقة. فكما نحتاج إلى حكمةٍ لنَعرفَ الحماقة، وإلى نورٍ لنعرفَ الظُّلمة، كذلك نحتاج إلى عمقٍ كي نعرفَ الباطِل، إلى معنًى كي نعرف اللَّامعنى. ويقول پاسكال: "أيُّ شخص لا يرى بُطلان الحياة لا بُدَّ أن يكونَ بالحقيقة باطلًا جدًّا".

مُقارنةً بالعقاقير السرِّيَّة الأنيقة الصَّغيرة لعقولنا المُتاجِرة بالرَّاحة، تلك التي لا تكاد تُساوي جَرَّةَ قَلَم أو نُقطةً على حرف، سِفرُ الجامعة عظيمٌ وعميقٌ ومُرَوِّع مِثلَ المُحيط. ولو كان هذا الفيلسوفُ عائشًا اليوم وعرفَ الفلسفة السائدة في أميركا، السيكولوجيا الشعبيَّة، بما فيها من مُلاطفاتٍ إيجابيَّة، وكثرةِ تعبيرٍ عن المُوافَقة والاستِحسان، ومُصادَقاتٍ ذاتيَّة نَرجِسيَّة، وسَمسَراتٍ ورعايات، وطمأناتٍ لطيفة يُكرَّر فيها القول "سلامٌ! سلام" في حينَ لا سلام، لاستَشهَدَ (الفيلسوفُ)- على ما أعتقِد- بقَول جون ستيوارت مِل (John Stuart Mill) إنَّه أفضَلُ أن يكونَ واحِدُنا سُقراطًا مُستاءً من أن يكونَ مُستَهتِرًا راضيًا؛ وبقَول وِليَم باريت (William Barrett): "أن

يُواجِهَ المرءُ وُجودَه الذاتيَّ بيأسٍ خيرٌ من ألَّا يواجِهَه أبدًا".

لقد حُسب الجامعةُ أعظمَ كتابٍ كُتِبَ على الإطلاق في نظر تشاؤميِّين مُتحمِّسين ولاأدريِّين أقلقَهمُ الله، مِثل هِرمان مَلقيل (Herman Melville)، إذ قال في الفصل السابع والتِّسعين من رِوايته "**مُوبي دِك**" *(Moby Dick)* إنَّ "أصدقَ الكُتُب جميعًا هو **سِفرُ الجامعة**". ويقول ثوماس وُلف (Thomas Wolfe)، في الفصل السابع والأربعين من روايته الكلاسيكيَّة الأميركيَّة "**لا يُمكِنك الرُّجوعُ إلى الدِّيار ثانيةً**" *(You Can't Go Home Again)*:

> بينَ كُلِّ ما رأيتهُ أو تعلَّمتُه على الإطلاق، يبدو لي ذلك السِّفرُ أقوى تعبيرٍ عن حياة الإنسان على هذه الأرض وأنبلَ تعبيرٍ وأحكمَه، وأيضًا أسمى زهرةِ شِعرٍ وبلاغةٍ وحقيقة. لستُ ميَّالًا إلى إصدار الأحكام الجازمة في شأن الإبداع الأدبيّ، ولكنْ إذا كان لا بُدَّ لي من إصدار حُكمٍ واحد، يُمكِنني فقط أن أقول إنَّ **الجامعة** هو أعظَمُ عَمَلٍ مكتوبٍ منفردٍ عَرَفتُه على الإطلاق، والحكمة المُعَبَّر عنها فيه هي الأكثرُ بقاءً وعُمقًا.

إنْ فاتَنا أن نجدَ شيئًا يُثبِتُ هذا الحُكم عندما نقرأ الجامعة أوَّلَ مرَّة، يحسنُ بنا أن نقرأه مرَّةً ثانية. فلا بُدَّ لنا إمَّا أن نستبعدَ بشهامةٍ حُكمَ العمالِقة، وإمَّا أن نتسلَّق أكتافهم ونُلقيَ نظرةً أُخرى. أفَما يبدو مُرجَّحًا على الأقلِّ أنَّ القَزَم، لا العِملاق، هو مَن يُخطئ استِشرافَ التَّضاريس؟

لي صديقٌ يُخيِّم في غابات ماين كُلَّ صيف. وذاتَ يومٍ التقى ناسِكًا

كبيرَ السِّنِّ ظلَّ يعيش بمعزِل عن ''المَدَنيَّة'' طوالَ أربعين سنة. وقد بدا له حكيمًا فوق العادة (على الأقلِّ أحكمَ من العَلمانيِّين في الحضارة الغربيَّة، وإنْ لم يكُن أحكمَ من مسيحيٍّ حقيقيّ). ولمَّا سألَه صديقي عن المصدر الذي منه أخذ حِكمتَه، سحبَ من جيبه الكِتابَ الوحيد الذي ما يزالُ لديه على مدى أربعين سنة، فإذا به نُسخةٌ صفراء مُهَلهَلة من سفر الجامعة– فقط سِفر الجامعة. إنَّ ذلك الكتابَ الواحدَ ما يزالُ كافيًا عنده. ولرُبَّما كانت ''المدنيَّة'' عديمةَ الحكمة جدًّا؛ لأنْ ليس أيُّ شيءٍ كافِيًا عندها أبدًا. لقد بقيَ الناسِكُ الشَّيخ في مكانٍ واحد طبيعيًّا وروحيًّا، واستكشفَ أعماقه؛ أمَّا المَدَنيَّة فمضَتْ تتقدَّم دون قرار، مُنزَلِقةً فوقَ سَطحِ الأعماق العظيمة. وبينما كانت المدنيَّة تقرأ ''مجلَّة التايمز'' [وتعني **اليوميَّات**]، كان هو يقرأ الأبَديَّات.

الجامعةُ باعتِباره عِلمَ أخلاق

من شأن الفلاسفة السابقين للعَصر الحديث أن يُصنِّفوا الجامعة بوَصفه كِتابًا في الأخلاقيَّات؛ لأنَّه يطرحُ أهمَّ الأسئلة الأخلاقيَّة كلِّها، السؤالَ الذي تدور حوله جميعُ الأعمال الكلاسيكيَّة جَوهريًّا إلى أبعد حدّ: **جمهوريَّةُ أفلاطون** *(Plato's Republic)*، **الأخلاقيَّات النِّيقوماخيَّة** *(Nicomachean Ethics)* لأرسطو، **اعترافاتُ أُوغسطينوس** *(Augustine's Confessions)*، ''**بحثٌ في السَّعادة**'' *(Treaties on Happiness)* ضمنَ **الخُلاصة اللَّاهوتيَّة** (Summa) لتوما الأكوينيّ، **خواطِرُ باسكال** *(Pascal's Pensees)*، **النِّظامُ الأخلاقيُّ** *(Ethics)* لاسبينوزا (Spinoza)، ''**إمَّا/وإمَّا**''

لكيركغارد (Kierkegaard). إنَّه السؤالُ عن الخير الأسمى (summom bonum)، أو القيمة العُليا، أو الغاية القُصوى، أو معنى الحياة.

تناولَ عِلمُ الأخلاق القديمُ دائمًا ثلاثةَ أسئلة. أمَّا عِلمُ الأخلاق الحديثُ فلا يتناوَلُ عادةً إلَّا سؤالًا واحدًا فقط، أو على الأكثر سؤالَين. والأسئلة الثلاثة تُشبِه الأُمور الثلاثة التي يتبلَّغُها أسطولٌ من السُّفن في أوامر إبحاره (الصُّورةُ المجازيَّة مأخوذةٌ من سي. أس. لِويس). فأوَّلًا، يجب أن تعرفَ السُّفُنُ كيف تتجنَّبُ اصطدامَ بعضها ببعض. هذه هي الأخلاقيَّات الاجتماعيَّة، وعلماءُ الأخلاق القُدَماء والمُحدَثون على السَّواء يتَناوَلونَها. وثانيًا، يجبُ على السُّفن أن تعرفَ كيف تبقى مُنظَّمة وتتجنَّب الغَرَق. هذه هي الأخلاقيَّات الفرديَّة، الفضائل والرَّذائل، بناءُ الخُلُق، ونحن نسمع القليل القليل عن هذه من فلاسفة الأخلاق المُحدَثين عندَنا. وثالثًا، وأهمَّ الكُلِّ، يجب أن تعرفَ السُّفنُ لماذا الأُسطولُ مُبحِرٌ بالدَّرجة الأُولى. ما مَهمَّتُه؟ وما مَقصِده؟ هذا هو سؤال الخير الأسمى، وما مِن فلاسفةٍ مُحدَثين، عدا الوجوديِّين، يَبدون مُهتمِّين مُجرَّدَ اهتِمام بهذا السؤال، أعظم الأسئلة كلِّها. وربَّما لذلك السبب تبدو الفلسفة الحديثة في مُعظَمِها كثيرةَ الضَّعف والشَّكوى، وبالغةَ التخصُّصِ والنُّخبويَّة، وقبلَ كلِّ شيءٍ مُضجِرةً جدًّا، في نظر الناس العاديِّين.

أعتقدُ أنِّي أعرفُ لماذا لا يجرؤُ الفلاسفةُ المُحدَثون على إثارة أعظم الأسئلة، والسببُ هو هذا: لأنْ لا جوابَ لَدَيهم عنه. إنَّها فَجوةٌ كبيرةٌ جدًّا بحيثُ لا يمكنُ أن يسدَّها إلَّا شجاعةُ وُجوديٍّ أو إيمانُ مؤمنٍ بالله.

الجامِعةُ الوجوديُّ

لم يكُن أوَّلَ وجوديٍّ هو سارتر (Sartre)، وإنْ كان هو مَنِ ابتكر هذا المُصطلَح. ولا كان كيركغارد أو نيتشه (Nietzsche)، مع أنَّ أغلبيَّة الكُتُب المدرسيَّة تقول هذا. حتَّى إنَّه لم يكُن پاسكال، مع أنَّه أنبأ مسبَّقًا بنِصْف فِكر كيركغارد وكان أوَّلَ من كتبَ عن الاختبار الوجوديِّ الأساسيِّ لِلقَلَق واللَّامعنى الكونيَّين. بل أيضًا لم يكُن هو القدِّيس أُوغسطينوس الذي تَبرزُ **اعترافاتُه** بوصفها أجَلَّ مَثَلٍ على سيكولوجيا العُمق والسِّيرة الذاتيَّة الوجوديَّة بين كُلِّ ما كُتِب على الإطلاق. لم يكُن حتَّى سُقراط الذي وحدَه بين الفلاسفة أوجَدَ فلسفتَه كلِّيًّا.

إنَّ أوَّل وجوديٍّ بالأحرى كان سليمان، أو كاتب سِفر الجامعة أيًّا كان قبلَ نحوِ ألفيَن وخمس مئةِ سنة من **غَثَيان** *(Nausea)* سارتر، أو "**الغريب**" *(The Stranger)* لِكامو (Camus)، أو كتاب بَكِت (Beckett) "**انتِظار غودو**" *(Waiting for Godot)*، أو "**القلعة**" *(The Castle)* لكافكا (Kafka)، لَدَينا هنا الاختبار والحَدْس الأساسيَّان في كُلٍّ من هذه الأعمال الكلاسيكيَّة الحديثة، مُعبَّرًا عنهما بأكثرَ صراحة ومبُاشَرةً وعَفْويَّةً من أيِّ وقت مضى أو أيِّ وقت آتٍ على الإطلاق.

إذا كُنتَ مُطَّلِعًا على الكتابات الوجوديَّة مثل المذكورة آنفًا، فلا بُدَّ أن ترى حقيقةَ هذا التَّصريح فيما نرفعُ السِّتارةَ عنِ الجامعة. ولا داعيَ لأنْ نُمدِّدَ الجامعة حتَّى يُناسِبَه الثَّوبُ الوُجوديّ.

عصريَّةُ الجامعة

يوجَدُ كتابٌ عُنوانُه "**للحياة وقتٌ وللموت وقت**" *(A Time to Live and a Time to Die)*، كتبَه روبرت شورت (Robert Short)، مؤلِّفُ "**الإنجيلُ بحَسَب فُستُق**" *(The Gospel According to Peanuts)*. وذاك كِتابُ صُوَرٍ فوتوغرافيَّة، صورةٌ لكُلِّ آيةٍ من الجامعة. والصُّور كلُّها عصريَّة. إنَّها صُوَرٌ لأشياءَ نراها كلَّ يوم دونَ أن نَلحَظَها (والتَّصوير الفوتوغرافيُّ يُساعِدُنا على القيام بذلك تمامًا: أن نَلحَظَ بدلَ مُجرَّدِ الرؤية). وتلك الصُّوَر مُلائمةٌ على نحوٍ مُذهل. فهي تُبيِّن حداثةَ الجامعةِ الكلِّيَّةَ، عصريَّتَه التامَّة، ذاك الكتابِ المُعاصِرِ على نحوٍ خالِد.

من المُناسِب أن تُعتمَد لإيضاح الجامعة، من بين الكُتُب كُلِّها، صُوَرٌ فوتوغرافيَّة؛ لأنَّ السِّفر هو سلسلةٌ من الفوتوغرافات الكلاميَّة. فالكلمة **فوتوغراف** معناها حرفيًّا هي "كتابةُ ضَوء"، صورةٌ مأخوذة بالنُّور، "تحتَ الشمس". وذلك هو أُسلوبُ الجامعة: المُشاهَدة البسيطة. فعلى خلاف باقي الأسفار في الكتاب المقدَّس، ليس مَوصولًا بكاميرَتِهِ مِصباحُ إيمانٍ لإظهار أعماقِ الحياة الداخليَّة أو معانيها الخفيَّة. إنَّه يستعملُ فقط النُّورَ المُتوافِر "تحتَ الشمس": مُراقَبةَ الحواسِّ والعقلَ البشريّ. فسَطحُ الحياة يَظهرُ بوضوحٍ كلِّيٍّ، وصدقٍ مُوجِع، وهُزالٍ روحيّ. إنَّ الجامعةَ هو أصدقُ صورةٍ للسَّطح كُتِبَت على الإطلاق.

مهما كان رجالُ الدِّين الذين قرَّروا أوَّلَ الأمر أن يُضمِّنوا الأسفارَ المُقدَّسة القانونيَّة سفرَ الجامعة، فقد كانوا حُكماءَ وشُجعانًا: حُكماءَ لأنَّنا نُقدِّر الشيءَ فقط بالمُفارَقة، والجامعةُ هو النقيض، البديل، لِباقي الكتاب

المقدَّس، السؤالُ الذي يُشكِّل باقي الكتابِ المقدَّسِ الجوابَ عنه. فليس من شيءٍ أتفهُ من جوابٍ دونَ سؤاله. ولذلك نحتاج إلى سِفر الجامعة.

وقد كان رجالُ الدِّين أيضًا شُجعانًا، لأنَّ السؤالَ الذي يُثيرُه الجامعةُ عميقٌ جدًّا بحيثُ لا يُمكن أن يُرضيَ العقلَ والقلب اللَّذَين يجرؤان أن يطرحاه إلَّا جوابٌ أعمقُ كثيرًا. وإذا كان جوابٌ كهذا بعيدَ المَنال، فعلينا إمَّا أن نهربَ من السؤال في تَغطِيةٍ مُضلِّلة وإمَّا أن نهربَ من الحياة يائسين. وهاتان هُما الدُّمَّلتان المُفرِزتان لِلقَيح اللتان يُصابُ بهما العالَم الحديث.

إنَّ الجامعة في الكتاب المقدَّس هو السِّفرُ الواحد الذي ينبغي للإنسان العصريِّ أن يقرأه أكثرَ الكُلّ، لأنَّه الدَّرسُ الأوَّل وباقي الكتاب المُقدَّس هو الدرسُ الثاني، والعصريَّة لا تُبالي بالدرس الثاني لأنَّها لا تُبالي بالدرس الأوَّل. وكُلَّما علَّمتُ الكتاب المُقدَّس ككُلٍّ، أبدأ دائمًا من الجامعة. في عصرٍ آخر، كان في وُسعنا أن نبدأ ببداءة الله، أي سفرِ التكوين. أمَّا في هذا العصر، عصرِ الإنسان، فيجبُ أن نبدأ حيثُ مَريضُنا؛ يجب أن نبدأ بالجامعة.

وسِفر الجامعة عصريٌّ من سبع نَواحٍ على الأقلّ.

أوَّلًا، هو كتابٌ وجوديّ، كِتابٌ عن وُجود الإنسان. إنَّه يطرحُ السؤالَ الكبيرَ لدى الإنسان الحديث: هل لِوُجودي هنا أيُّ مَعنًى على الإطلاق؟ لقد تنازعَتِ العصور السالِفة حول ما يعنيه الوجودُ البشريّ. والجامعةُ وحدَه، بين الكُتب السابقة للعصر الحديث، يجرؤ على طرح السؤال: افترضْ أنَّه خالٍ من أيِّ معنى؟ فسؤالُه ليس عن جوهر الحياة بل عن وجود معنًى لها.

ثانيًا، يُبيِّنُ خَوفَ العصريَّةِ الأعظمَ، وليس هو إلى حدٍّ بعيدٍ الخوفَ من الموت (ذلك كان الخوفَ الأشدَّ عندَ الإنسان القديم)، ولا الخوف من الخطيَّة أوِ الذَّنْب أو جهنَّم (ذلك كان الخوف الأشدَّ عند إنسان القُرون الوُسطى)، بل هو الخوفُ من اللَّامعنى، من "الباطل"، من "الخَواء الوجوديّ"، خوفُ العَدَميَّة.

ثالثًا، يُشارِكُ العقلَ الحديثَ في أفضلِ لمحةٍ من مَلامِحه وفي أسوإها أيضًا. فمع أنَّه كتابٌ باعثٌ على اليأس بعُمق، هو أيضًا كتابٌ صادِقٌ بعُمق. واليأسُ ذاتُه يمكنُ أن يكون مُفعَمًا بالرَّجاء إذا كان صادقًا (نرى في أيُّوب حالةً رائعةً تُمثِّل هذا).

رابعًا، جوابُ الجامعة للسؤال عن الخير الأسمى، أو الغاية القُصوى، أو معنى الحياة، هو الجوابُ العصريّ، وتحديدًا: لا جواب. فمِن بين الحضارات الكُبرى الواحدة والعشرين التي وُجِدَت على كوكبنا، وفقَ حساب المؤرِّخ البريطانيِّ تُوينبي (Toynbee)، حضارةُ الغرب الحديث هي الأُولى التي لا تُضطرُّ لأنْ تُعلِّمَ مُواطِنيها أيَّ جوابٍ للسؤال عن سَبَب وجودهم. وتتمثَّلُ طريقةٌ لطيفةٌ للتَّعبير عن هذا في قولنا إنَّ المُجتمعَ الغربيَّ تعدُّديٌّ ويتركُ لمواطِنيه الحرِّيَّة في أن يختاروا أو يخترعوا قِيَمَهم القُصوى. إلَّا أنَّ طريقةً أصرحَ لقول الشيءِ نفسه هي أنَّ المُجتمع الغربيَّ لا يملك شيئًا سوى جهلِه يُقدِّمُه لمُواطِنيه بشأن هذا السؤال، أهمِّ الأسئلة كلِّها. ففيما ينمو المُجتمع، يَعرفُ أكثرَ فأكثر عن أقلَّ فأقلّ. إنَّه يعرفُ أكثرَ عن الأُمور الصغيرة، وأقلَّ عن الأُمور الكبيرة. يَعرفُ أكثرَ عن كلِّ شيء، وأقلَّ عن الشيءِ الأهمّ.

خامسًا، النتيجةُ العمليَّة لهذا الخَواء في القِيَم هي مذهبُ المتعة. فعندما لا تدري لماذا تفعلُ كلَّ شيءٍ آخر، يبقى في وُسعك أن "تنهبَ اللَّذَّة" و"تنتهزَ الفُرصة". وعندما تتلاشى الغايات القُصوى، تبقى اللُّعَب. إنَّما نصحيةُ الجامعةِ الإيجابيَّةُ الوحيدة هي أن تعيش "مبدأ اللَّذَّة" الفرُويديَّ، ولكنْ أن تكون صادقًا كفايةً بحيثُ تتذكَّر أنَّ "هذا أيضًا باطل" وأنَّه ينتهي بالموت فحسْب، حتَّى لا يُمكِنُك أن تأخذَ معك أيَّة لُعبة من لُعَبك. هنالك أزهار، ولكنَّ وراءَ الأزهار دائمًا جُمجُمةً مُكشِّرة. إنَّ على متنِ **سفينة التايتَنِك** كثيرًا من التَّسليات المُبهِجة!

ومع ذلك، فإنَّ النصحية "تَمَهَّلْ وشُمَّ الورود!" أفضلُ من التَّظاهُر بأنَّ مَلاهيَنا المحمومةَ الصَّغيرة مُفعَمةٌ بالمعنى ومُشبِعةٌ إلى التَّمام. إنَّ "المتعةَ" الصادقة مُتفوِّقةٌ روحيًّا على خِداع الذات غير الصادق. وللرَّجُل الذي بنى مخازنَ أكبر كي يخزنَ غِلالَه وقال لنفسه "يا نفسُ... استريحي!" كان لدى السيِّد المسيح كَلامٌ يقولُه عنه أقسى ممَّا خاطبَ به الزانيةَ المُبكَّتة أو اللِّصَّ التائب على الصليب. فـأسمى على الإطلاق من نِشدان اللَّذَّات لإشباع الذَّات، يتَّسِمُ الجامعة ببطولة الصِّدق. وأسمى على الإطلاق من السيكولوجيا الشعبيَّة، يرتفعُ إلى وقار اليأس.

سادسًا، سياقُ الجامعة، العالَمُ الذي فيه يُواصِلُ بحثَه، هو عالَمٌ دنيويٌّ أو عَلمانيّ. ففي ذلك العالَم، يُقلَّصُ الدِّين إلى واحدةٍ من عدَّةِ دوائرَ صغيرةٍ في الحياة، إذ يُدرَجُ مثلًا بين "الصحافة" و"العِلم" في فهرس مَجلَّةِ **تايم**. ثُمَّ إنَّه يُقلَّصُ بَعدُ إلى ما يمكن أن يُلاحَظَ تجريبيًّا في دوائر الحياة.

وفي عالَمٍ دُنيويّ، يكون الدِّينُ في مكانٍ ما من الحياة، وليس العكس.

فالله مُقوِّمٌ في حياتي بَدَلَ أن أكون أنا مُقوِّمًا في حياته. والدُّنيويَّة بَشَريَّةُ المركَز، لا إلهيَّةُ المركَز. فقد يُسمَحُ للدِّينيِّ بأن يُوجَد، إلَّا أنَّه مُعرَّفٌ بالدُّنيويّ، بدلَ أن يكون الدُّنيويُّ مُعرَّفًا بالدِّينيّ، كما في باقي الكتاب المقدَّس وفي باقي العالَم السابق للعصر الحديث.

أمَّا سابعُ ناحيةٍ من كَون الجامعة عصريًّا فهي أهمُّ النواحي جميعًا. ذلك أنَّ صفةَ الدُّنيويَّة لا تقتصرُ على سياقِه الشُّهوديِّ (أي متعلِّق بالمراقَبة)، بل إنَّ أُسلوبَه، ونظريَّةَ المعرفة فيه، وجوابَه عن السؤال: كيف تَعرِفُ الحقيقة؟ هي أيضًا دُنيويَّةٌ كلِّيًّا. فالكاتبُ مُراسِلٌ صحافيٌّ لصحيفة الأرض الكونيَّة. وهو لم يُطلَع على أيِّ إعلانٍ إلهيٍّ خاصّ، ولا تعرَّضَ لأيِّ تدخُّل خارقٍ للطبيعة. فما إلهُه إلَّا "الطبيعة وإله الطبيعة"، إلهُ دينِنا العصريِّ المؤسَّسِيّ. إنَّه نصيرٌ للتَّجريب.

صمتُ الله في الجامعة

إنَّ الفرقَ بين الفلسفة والدِّين هو الفرقُ بين التكلُّم والإصغاء، بينَ تكلُّم الإنسان بشأن الله وتكلُّم الله بشأن الإنسان، مع إصغاء الإنسان. هذا هو الفرق بين العقل والإيمان. فالفلسفةُ هي بحثُ الإنسان عن الله؛ والكتاب المقدَّس هو قصَّةُ بحثِ الله عن الإنسان. الفلسفةُ هي كلماتٌ تطيرُ إلى فوق؛ والكتابُ المقدَّس هو الكلمة مُرسلة إلى تحت. والجامعة في الكتاب المقدَّس هو السِّفر الوحيد الذي فيه يبقى الله صامتًا تمامًا. فالكاتبُ لا يلجأ إلى أيِّ إعلانٍ إلهيّ، بل فقط إلى العقل البَشَريِّ الطبيعيِّ ومُشاهَدةِ الحواسّ. إنَّ الله هو فقط مَوضِعُ بَحثِه، لا مَوضوعُه؛ المطلوبُ، لا الطالِب؛ "مُتعقِّبُ السَّماء".

وفي أيُّوبَ الله صامتٌ أيضًا، إلَّا في البداية وفي النهاية. غير أنَّ هذين المقطعَين يُشكِّلان الفرقَ بين أيُّوب والجامعة. فلأنَّ الله يتكلَّم، يملك أيُّوب كلَّ شيء، وإنْ كان لا يملكُ أيَّ شيء. ولأنَّ الله صامت، لا يملك الجامعة أيَّ شيء، وإن كان يملك كلَّ شيء.

يتكلَّم الله مرَّتين في أيُّوب. ففي الأصحاحَين الأوَّلَين، نراه يُسائل أيُّوب، يمتحنه. وفي ضوء هذه البداية، نفهم نحنُ القُرَّاءَ الجُزءَ المُتوسِّطَ الطويل، بحْثَ أيُّوب عن الله، وأيضًا بحثَ الله عن أيُّوب حقًّا. ولكنَّ هذين الأصحاحَين لم يكونا في حَوزة أيُّوب. فالله يبدو له صامتًا، تمامًا كما بدا للجامعة.

في الأصحاحات الخمسة الأخيرة من أيُّوب، يتكلَّم الله من العاصفة. وليس في أدَبِ العالَم كُلِّه ما هو أكثرُ عُمقًا من هذا الخطاب. فهو كافٍ لإرضاء أيُّوب، الرَّجلِ الأصعبِ إرضاءً على الأرض. لأنَّ أيُّوب لم يكُن صبورًا، بل كان نافِدَ الصَّبر. لقد كان أيُّوب من القَوم الذين شِعارُهم "أرِني!" فمهما كان مخبَّئًا في هذه الأصحاحات، فهو عظيمٌ كفايةً بحيثُ يُرضي الرَّجُلَ الأصعبَ إرضاءً في العالَم بشأن أصعبِ سؤالٍ في العالَم: سِرِّ الشَّرّ. ولا بُدَّ أنَّه أيضًا سيكون عظيمًا كفايةً بحيثُ يُرضي الجامعة لو تكلَّم الله إليه، إلَّا أنَّه لم يتكلَّم.

ربَّما كان الجامعةُ غيرَ مُصغٍ فحسْب. ففي أيُّوب، لم يَظهَرِ الله في المشهد إلَّا لمَّا سكتَ أيُّوب. وأفضلُ كلماتٍ تضمَّنها سِفرُ أيُّوب هي: "تَمَّت أقوالُ أيُّوب". فكما يقول أليهو لأيُّوب: "الله يتكلَّم كلَّ حين، أوَّلًا بطريقة، ثُمَّ بأُخرى، ولكنَّنا نحنُ لا نسمع". أو لعلَّ أيُّوبَ تلقَّى جوابه، أمَّا الجامِعة فما تلقَّاه؛ لأنَّ أيُّوب كان خادمًا مُتألِّمًا، أمَا الجامعة ففيلسوفًا مُتأمِّلًا، ليس غير.

فالجامِعة كان مِثلَ سَقراط؛ وأيُّوب كان مِثل السيِّد المسيح.

إنَّ الكتابَ المقدَّسَ كُلَّه إعلانٌ إلهيّ، كلامٌ إلهيّ. ولكنَّ الله لا يتكلَّم البتَّة مُباشرةً في الجامعة؛ إذ إنَّ الجامعة كُلَّه مُناجاة، لا مُحاوَرة. فكيف هو إعلانٌ إلهيّ؟

إنَّه مُناجاةٌ مُوحًى بها. فالله في عنايته رتَّب لهذا السِّفر الواحد المُكوَّن من فلسفةٍ عقلانيَّة مُجرَّدة أن يُشملَ في الأسفار المقدَّسة القانونيَّة لأنَّ هذا أيضًا إعلانٌ إلهيّ. إنَّه إعلانٌ إلهيٌّ تحديدًا بكَونه غِيابَ الإعلان الإلهيّ. فهو أشبَهُ بالصُّورةِ الظلِّيَّة لباقي الكتاب المقدَّس. إنَّه ما يدعوه فَلتُن شِين (Fulton Sheen) "نعمة سوداء" بدلًا من "نعمة بيضاء"، إنَّه إعلانٌ بواسطة الظُّلمة، لا إعلانٌ بواسطة النُّور. ففي هذا السِّفر يُعلِن لنا الله تمامًا ما هي الحياةُ حينَ لا يُعلِنُ لنا الله ما هي الحياة. إنَّ الجامعةَ يؤطِّرُ الكتابَ المقدَّس كما يؤطِّرُ الموتُ الحياةَ.

خُلاصة الجامعة

إنَّ بنيةَ الجامعة أكثرُ إحكامًا ومَنطقيَّةً بكثيرٍ ممَّا تبدو أوَّلَ وهلة. فالسِّفر يبدو أنَّه يخبطُ على نحوٍ عشوائيّ، ولا يسير إلى غايةٍ مُعيَّنة، ويفتقِرُ إلى استنتاجاتٍ مُعلَّلةٍ بدقَّة، مُجرَّدَ عباراتٍ من الحكمة منثورة على وجهِ صحراء كقَطَراتِ مَطَر قليلة، سُرعانَ ما تمتصُّها التُّربةُ الجافَّة، أو كمُلصَقِ صُورٍ مُلتقطٍ من كُوَّةِ سفينةٍ تغرق.

غير أنَّ تَجَوُّل السِّفر مُتعمَّد، لأنَّ هذا الشَّكل يُعبِّر تعبيرًا مُمتازًا عن

مضمونه، عن رسالته: أنَّ **الحياةَ** تهيمُ إلى لامَكان. فالجامعة يُمارِس ما يُعلِّمه. إنَّ شكلَه واحِدٌ مع مضمونه؛ وهذا هو مِعيارُ الشِّعر العظيم. هل تُطارِدُ الحياةُ ذيلَها؟ حسنًا تمامًا، هذا السِّفرُ سيَفعلُ ذلك! فنهايَتُه وبدايَتُه مُتماثِلتان: "الكلُّ باطل".

ومع ذلك، فإنَّ الجامعةَ مُحاجَّةٌ منطقيَّة، لا مُجرَّدُ مُلاحَظاتٍ مبعَثرة. ومُحاجَّتُه استِنتاجيَّةٌ وبُرهانيَّة، لا استقرائيَّةٌ وشُهوديَّةٌ فقط. فعلى الرُّغم من أنَّ الكاتبَ ما قرأ قطُّ كتابات أرِسطو، أو أيَّ كتابٍ في المَنطِق، وهو لم يَقصِد واعِيًا أن يسكبَ سِفرَه في قالَبِ قِياسٍ مَنطِقيّ، فالسِّفرُ رُغمَ ذلك **هو** قياسٌ منطقيّ، فقط لأنَّ ذلك هو القالَب الذي في إطاره يُحاجُّ العقلُ البَشَريُّ على نحوٍ طبيعيٍّ وفِطريّ. وخُلاصتي عن الجامعة بشكل قِياسٍ منطقيٍّ (راجِع عنوان "القياسُ المنطقيُّ البغيض") ليست صُورةً على لَوحٍ ممسوح بل صورةٌ بالأشعَّة السينيَّة؛ فالسِّفر لا يفرضُ صورةً جديدةً أو غريبة، بل يكشفُ البنيةَ الموجودةَ أصلًا، العَظمَ تحتَ اللَّحم.

إنَّ مُحاجَّةَ الجامعة مُلخَّصةٌ في الآياتِ الثلاث الأُوَل، ومُوسَّعةٌ في اثنَي عشر أصحاحًا، ثُمَّ مُلخَّصةٌ في الخِتام. فأوَّلُ ثلاثِ آياتٍ هي كامِلُ السِّفر في صُورَة مُصَغَّرة. الآية الأُولى تذكر العُنوانَ والكاتب؛ والآية الثانية تعرضُ بيتَ القصيد، الاستِنتاج؛ والآية الثالثة تُقدِّم البُرهان الجوهريَّ عليه.

١. كلام الجامعة، ابنِ داود، المَلِك في أُورشليم.
٢. باطلُ الأباطيل– قال الجامعة– باطل الأباطيل! الكلُّ باطل!
٣. ما الفائدة للإنسان من كلِّ تعبه الذي يتعبُه تحت الشمس؟